Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ردد معي البيت بصوت مرتفع لتحس تلك التيارات الخفية التي يشعها هذا البيت . والتي تستعصي على أي تفسير أو شرح . وإنه لأمر عجيب أن يفجر الشاعر – بكل هذه البساطة – هذه المشاعر المرهفة الشجية ....

وبقية المشهد ثورة مباشرة على سيف الدولة . فهو مات عنده مئات المرات . وكم قتل وكم نعاه جماعة قبل هذه المرة ولكنهم ماتوا قبل أن يموت .

ولعل أقسى ما وجهه إلى سيف الدولة قوله في هذا المشهد :

رأيتكـــم لا يصـــون العـرض جاركم ولا يـــدر عـــلى مـرعـاكـم اللبـن

ويحدثه في هذا المشهد أيضاً أن جزاء من يقترب منه الملل والإعراض ، أنه يمنح العطايا ثم ينغصها بالمن .

ومن أجمل ما في هذا المشهد تصوير المسافة البعيدة التي تفصل بينهما وأنها « بهماء تكذب فيها العين والأذن » وكيف تزحف فيها الأبل على ركبتيها بعد أن أكلت أخفافها المسافات الشاسعة . وفي غضون هذه الثورة العارمة على سيف الدولة وفي هذا المشهد نقرأ بيتين يدلان دلالة عميقة على حبه المستكن لسيف الدولة :

سهرت بعـــد رحيـــلي وحشة لـكـــم ثـــم استمر مريري وارعـــوى الوسن

وإن بليـــت بـــود مثـــل ودكـــــم فـــإنـــني بفـــراق مثلـه قمـن

إنه يعترف بهذا الحب الذي أرقه الليالي الطوال بعد رحيله . وظل في وحشة حتى أنسته الألفة ومرور الأيام . وواضح أنه يقصد بالبيت الثاني كافوراً وأنه قد أزمع فراقه ولهذا جاء المشهد الأخير صغيراً وفاتراً في هذه اللوحة .

فهذا المشهد الرابع يتكون من أربعة أبيات يقول فيها :

أبـلى الأجلـــة مهـري عنـد غيركـــم وبـدل العـــذر بـالفسطاط والرسن

عند الهمام أبي المسك الذي غرقـــت في جـوده مضر الحمـراء واليمـن

وإن تـأخـر عنـي بعض مـوعـــده فمـا تـأخـر آمـالي ولا تهـــن

هـو الـوفي ولكـــني ذكـرت لـــه مـودة فهـــو يبلـوهـا ويمتحن

ولست أدري لماذا ختم المتنبي قصيدته بهذا المشهد الصغير الفاتر الذي يسخر فيه من كافور ويتحدث عن « جلال فرسه » وحيله وعذاره . وكيف بليت هذه الأشياء وبدلها بعد طول مقامه عند الهمام أبي المسك . ثم يذكر أن وعده تأخر لأنه لا يزال يختبر مودته وهذا أقرب إلى السخرية والهجاء . هل كان قد ضاق بمقامه وأزمع الرحيل ؟